الزعيم

سعد بن معاذ

رضي الله عنه

إذا كنت مسؤولا في أي مكان أيا كان
حاول أن تأخذ بيد من تحتك إلى الخير.

« من يكون هذا الفتى ؟».

صاح بها في ضيق سعد بن معاذ زعيم بنى عبد الأشهل في المدينة، لأسيد بن حضير وسط عدد من الأصدقاء، جاؤوا إليه في منزله في مجلسهم المعتاد.

ثم تابع في صرامة متسائلا:

- شاب صغير يأتي إلينا من مكة، ليفسد علينا أهلنا وأبنائنا ونحن نشاهده في صمت؟ ألا تذهب إليه يا أسيد فتمنعه عما يفعل ؟

وقبل أن ينطق أسيد، لاحقه سعد مبررا عدم ذهابه قائلا:

- تعلم أن «مصعبا» يقيم في دار ابن خالتي أسعد بن زرارة، فلعل الأمر يصيبني ببعض الحرج.

نهض أسيد بن حضير آخذا معه حربته، متجها إلى بيت أسعد بن زرارة، حيث يجد مصعب بن عمير، تاركا سعدا وأصحابه يكملون حديثهم حول ذاك الغريب الذي أتى يريد أن يغير وجه المدينة.

ولم تكد تمضي أكثر من ساعة، حتى انقطع الحديث بدخول أسيد بن حضير..

وما إن رآه سعد بن معاذ حتى همس لنفسه مندهشا وهو يتساءل:

- أبلغت مهارة الشاب إلى هذه الدرجة ؟

ثم ارتفع صوته قليلا وهو يقول:

- لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به.

وفي الحقيقة.. كان سعد محقا في رؤيته، فلقد استطاع مصعب بالفعل أن يقنع أسيدا بالإسلام، رغم ذهابه متحفزا له في بادئ الأمر، ولقد بلغت حماسة أسيد بعد إسلامه، إلى أنه أراد أن يدعو إلى ما آمن به بعد ساعة فقط من إسلامه..

ولكنه لم يرد أن يصيب بسهمه أي صيد..

لقد نوى على صيد ثمين..

ولم يكن هذا الصيد إلا صديقه سعد بن معاذ نفسه، والذي ما إن اقترب منه، حتى نظر إليه نظرة، فهم أسيد معناها وهو يقول له:

- ما الخبر يا أسيد ؟

أجاب أسيد بثقة لم تنطل على سعد قائلا:

- قلت لهم أن يكفوا فاستجابوا لي.

ثم تابع وهو يهم بالجلوس قائلا:

- إلا أنني أخشى على ابن خالتك أسعد بن زرارة.

اعتدل سعد بن معاذ في مجلسه واتسعت عيناه وهو يقول في تحفز:

- تخشى على أسعد ؟من ماذا ؟!

قال أسيد:

- لقد علمت أن هناك من يدبر له ليقتله من بني حارثة، نكاية فيك وانتقاما منك، وإني أرى أن تذهب إليه لترى الأمر بنفسك.

نظر سعد إلى أسيد وهو لا يكاد يصدقه، إلا أنه لم يجد بدا من الذهاب إلى ابن خالته أسعد بن زرارة، فنهض وهو يفكر فيما قاله أسيد قائلا:

- على أي حال، سأذهب، وسنرى ما الأمر.

وكان هذا هو بالتحديد ما يريده أسيد من سعد بن معاذ..

فقط.. أن يذهب إلى ابن خالته أسعد بن زرارة..أو بالأحرى يذهب إلى مصعب بن عمير..

فلقد وجد أسيد في مصعب من الموهبة والمهارة في عرض فكرة الإسلام وقوة الإقناع بها، ما يجعله يرتب تلك الحيلة ليجعل «سعدا » و« مصعبا » وجها لوجه..

وعندها يكون أسيد قد أدى دوره بنجاح.. ليكمل مصعب بن عمير مع سعد بن معاذ الجزء الأصعب من المهمة .

سار سعد بن معاذ ورأسه تدور بحديث أسيد الذي لم يقتنع به، ووجهه الذي تغير بعد ساعة فقط من لقاء الشاب الصغير..

ما الذي حدث؟ وما الذي دار بينهما ؟ وما الذي دفع أسيدا أن يقول ما يقول ؟

لكن شيئا من غموض الموقف بدأ يتضح بمجرد أن وصل سعد إلى منزل ابن خالته أسعد بن زرارة.

فلقد وجد سعد المكان هادئا تماما، وليس هناك ما ينبئ بأية مشكلة.. ومصعب يلتف حوله الناس يستمعون إلى كلامه ودعوته.

إذن ما كان يفكر فيه سعد صحيحا، أسيد لم يكن يقول الصدق.

إلا أنه وقبل أن يستغرق في التفكير في سبب ما فعله أسيد، وجد نفسه وجها لوجه مع مصعب ابن عمير، وبتحفز وبشيء من الغضب الواضح على وجه سعد بن معاذ، قال له في حدة:

- يا مصعب..اخرج من بلادنا إن كان لك رغبة في البقاء حيا.

ورغم التهديد الواضح من زعيم بنى عبد الأشهل، توقع سعد أن يقع الخوف في قلب مصعب، أو أن يصيبه بعض الاضطراب الذي يعرفه سعد (كزعيم) تماما، مع غيره في مثل هذه المواقف.

إلا أن سعدا فوجئ بهدوء مصعب، الذي كشف عن شخصية متزنة لا يستهان بها..والذي ما لبث أن قال لسعد بن معاذ في ابتسامة لطيفة:

- هل لك في خير من ذلك ؟

قال سعد في كبرياء:

- وما ذاك ؟

تابع مصعب كلامه بهدوء لا ينم إلا عن رجل حكيم وهو يقول:

- اسمع مني، فإن أعجبك كلامي ورضيت به فهو الخير، وإن لم يعجبك تركت لك المكان وخرجت.

ولم يكن لرجل عاقل أيا كان، سعد بن معاذ أو غيره، ليرفض عرضا مثل عرض مصعب..

منتهى العقل والهدوء والحكمة، كانوا كفيلين بأن يهيئوا سعد بن معاذ لسماع ما سوف يقوله مصعب..

وليس عجيبا أن يكون مصعب في كامل الثقة في نفسه، إذا علمنا قوة ما كان ينوي أن يقوله..

لقد اختار مصعب كلمات كان من الصعب أن يقف أمام قوتها أحد..حتى وإن كان سعد بن معاذ، أحد زعماء المدينة ..

آيات من القرآن الكريم..

نعم..القرآن الكريم..نفس ما فعله مع أسيد بن حضير، فما كان من أسيد إلا أن شعر بأن شيئا ما يتحرك بداخله، فأسلم قبل أن يقوم من مجلسه.

وهو نفس ما شعر به سعد بن معاذ..

كان القلب يأبى إلا أن يفتح بواباته على مصراعيها لتلك الكلمات، لتدخل دون استئذان.

وأخذ العقل يزن الكلمات فلا يجد فيها نقصا أو خللا أو شبهة.

وما هي إلا دقائق، حتى تحول سعد الغاضب الثائر، إلى سعد الهادئ المتأمل..

لقد تغير كيان سعد..

وأسلم..

نعم.. لقد أصبح سعد بن معاذ مسلما.. لينجح مصعب في دعوة زعيمين من زعماء المدينة إلى الإسلام، وفي أقل من ساعتين فقط.

ليس هذا فحسب.. فمثلما تحمس أسيد بن حضير، وفكر في حيلة يدعو بها سعد بن معاذ إلى الإسلام، تحمس سعد بن معاذ ليدعو كل قومه إلى الإسلام.

ولم يدخر سعد وقتا.. وبنفس الحماسة التي ذهب بها إلى مصعب منذ قليل ليثنيه عن دعوته،

ذهب إلى قومه «بني عبد الأشهل»، ووقف قائلا لهم بكل ثقة:

- ما رأيكم في؟

قالوا:

- أنت سيدنا يا سعد.

قال سعد:

- وكيف ترون رأيي فيكم.

قالوا:

- أنت أفضلنا رأيا يا سعد.

وعندها نظر سعد إليهم نظرة قوية وقال في صرامة:

- فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام، حتى تؤمنوا بالله وحده.

فما كان من بني عبد الأشهل كلهم إلا أن أسلموا استجابة لقائدهم سعد بن معاذ.

نعم الزعامة يا سعد.. ونعم القيادة..

زعامة شاب كان لا يزال في الثلاثين من عمره، أخرجت قومه من الظلمات إلى النور، وقيادة قادت أهله إلى الهدى، وأنقذتهم من الضلال.

ومنذ تلك اللحظة، وزعيم بنى عبد الأشهل يسرع الخطى إلى رضا الله، ويمد يده إلى مصعب بن عمير لتزداد شمس الإسلام إشراقا في المدينة.

شمس آن لها أن تستعد، بعد عام واحد فقط من إسلام سعد، لاستقبال خير الخلق وحامل الرسالة.

الرسول ﷺ.

* * *

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وهم يعلمون تمام العلم أن في انتظارهم مشكلات كبرى في حاجة إلى حل .

وكانت أكبر هذه المشكلات التي تنتظرهم على الإطلاق، هي مشكلة السكن.

أين يسكن المهاجرون الذين وصل عددهم إلى ألف وأربعمائة رجل وامرأة؟!

ومن يقبل أن يستضيف شخصا في بيته لأجل غير مسمى ؟

وعلى عظم المشكلة، والتي تصل في كثير من الأحيان إلى لغز ليس له حل..

فلقد كان الحل لدى سعد بن معاذ وقومه بني عبد الأشهل..

لقد قبلت قبيلة سعد أن يقيم المهاجرون في بيوتهم، في واقعة لا يذكرها التاريخ إلا في هذا المكان.

لقد أقنع سعد قبيلته في أن يتحملوا عبء المهاجرين، وأن يقاسموهم ديارهم وطعامهم وشرابهم، ليحل بذلك أزمة ما كان لها أن تحل، إلا بكرم وتضحية لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

وعلى الرحب والسعة استضاف الأنصار إخوانهم المهاجرين، ومع كل يوم يمر، وأمام بساطة الأنصار وكرمهم، زال الحرج وذابت الفوارق، وبدأ يتشكل مجتمع جديد ينبض بالأخوة في الله، ويحيا بالحب الخالص المخلص.

ولقد لعب هذا التماسك الفريد دورا عظيما، في أول مواجهة بين المسلمين وقريش بعد عامين من الهجرة..

في موقعة بدر..

كان الأمر مفاجأة لم يحسب لها حساب، وجاءت الأخبار تنبئ بأن قريشا تزحف على المدينة، للنيل من المسلمين كرد على محاولة الإغارة على قافلة أبي سفيان.

وكان هذا هوأول هجوم على المدينة..

وأول اختبار حقيقي لقدرة الأنصار على المواجهة والصمود.

ووقف الرسول ﷺ ينظر إلى الجميع في ترقب قائلا:

« أشيروا علي أيها الناس ».

ولم يكد الرسول ﷺ يتم كلمته حتى وقف أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، معلنين استعدادهما الكامل لخوض ما يخوضه الرسول ﷺ دون تردد..

ووقف المقداد بن عمرو ليؤكد ما قاله أبو بكر وعمر ..

إلا أنهم وجدوا الرسول ﷺ يعيد نفس الجملة ونفس السؤال:

« أشيروا علي أيها الناس ».

لم يكن الرسول ﷺ يريد المهاجرين، الذين عرفهم طيلة ثلاثة عشر عاما في مكة وعامين في المدينة، ولا يشكلون أكثر من ربع الجيش.

لقد كان الرسول ﷺ يريد الأنصار.

وهذا بالتحديد ما فطن إليه سعد بن معاذ، فأشار بيده إلى نفسه وهو يقول:

- كأنك تريدنا يا رسول الله.

فإذا برسول الله ﷺ ينظر إليه مبتسما وهو يقول:

« أجل..أجل يا سعد ».

عندها نهض سعد بن معاذ وهو يقول بكل حماس وصدق:

« يا رسول الله.. لقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا..فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك..فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا..إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء..ولعل الله يريك ما تقر به عينك...فسر بنا على بركة الله»...

ولم يكن الرسول ﷺ يريد أكثر من ذلك، حتى يعلن دخول الحرب مطمئنا..

ورسمت كلمات سعد بن معاذ البسمة والسرور على وجه الرسول ﷺ وهو يقول:

« سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين.. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

لقد أفادت زعامة سعد وثقة أهله فيه وإيمانهم به- المسلمين إلى أقصى درجة، سواء في السلم أوالحرب.

ففي السلم.. وجدوا لديه المأوى والسكن..

وفي الحرب.. وجدوا عنده الشجاعة والبطولة.

ولم تتوقف بطولة سعد عند غزوة بدر، فلقد خاض بعدها بعام واحد غزوة أحد، ليثبت فيها مع رسول الله ﷺ، رغم هول الأحداث ومرارة الهزيمة.

أما في غزوة الأحزاب..

فلقد كان له دور كبير..

وخطير.

* * *

الموقف في غاية الخطورة..

عشرة آلاف يحاصرون المسلمين خارج المدينة، بعد أن نجح بعض زعماء اليهود في إقناع قريش بإقامة تحالف قبلي من قبائل الجزيرة العربية، للقضاء على المسلمين بضربة قاضية تنهي وجودهم إلى الأبد.

ولقد زاد من خطورة الموقف وصعوبته، انضمام قبيلة من أكبر قبائل العرب إلى التحالف، وهي قبيلة غطفان.

إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فلقد كان المسلمون على موعد مع مفاجأة مذهلة..

لقد خانت بنو قريظة العهد مع الرسول ﷺ، وتحالفت مع قريش..

ونظرا لخطورة الموقف، رأى الرسول ﷺ أن يتأكد من الخبر أولا..

فاجتمع الرسول ﷺ بسعد بن معاذ وسعد بن عبادة كزعيمين للأنصار، ليخبرهما بخطورة الوضع، وضرورة التأكد من الخبر قبل التصرف.

ويذهب الاثنان إلى « كعب بن أسد » زعيم يهود بني قريظة، ليسألاه عما سمعا، فإذا بكعب يرد عليهم بكل وقاحة قائلا:

- ليس بيننا وبين محمد عهد ولا عقد!!

وبكل الأسى والحزن، عاد الاثنان لينبئا الرسول ﷺ بالخبر، ولم يفتهما أن لا يصرحا بالأمر أمام المسلمين، للحفاظ على حالتهم المعنوية.

لقد ازداد الموقف صعوبة وتعقيدا..

إلا أن فكرة لاحت للرسول ﷺ، قد تنجح قليلا في فك هذا الحصار الضاري.

فكرة تخص قبيلة غطفان..

كانت تقارير المخابرات تفيد بأن قبيلة غطفان، جاءت إلى هذه الحرب طامعة في الغنائم..

إذن لم يكن المحرك الرئيسى لغطفان هوالقضاء على المسلمين، بدرجة رغبتهم في الاستفادة المادية من انتصار رأوه مؤكدا على المسلمين ..

وكانت هذه المعلومة بالتحديد محورا للتفاوض مع قبيلة غطفان.

تأخذ غطفان ثلث ثمار المدينة، مقابل الانسحاب من الحرب.

ووافقت غطفان..إلا أن الرسول ﷺ لم يرد أن يبرم الاتفاق النهائي، قبل أن يعود إلى قادة الأنصار: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

ورغم خطورة الموقف، ووضوح موقف الرسول ﷺ من محاولة تخفيف الضغط عن المسلمين..إلا أن روح الزعامة عند سعد بن معاذ، كانت تأبى الاستسلام مهما كانت الضغوط..

وبعزة مثيرة للإعجاب، نظر سعد إلى رسول الله ﷺ وهو يقول:

- يا رسول الله.. أهذا رأي تختاره، أم وحي أمرك الله به؟

قال الرسول ﷺ: « بل أمر أختاره لكم..

والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما»..

وأحس سعد بن معاذ أن أقدارهم كرجال ومؤمنين تواجه امتحانا، وأي امتحان..

فقال: يا رسول الله.. قد كنا وهؤلاء على الشرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من مدينتنا تمرة، إلا قرى (أي كرما وضيافة) أو بيعا..

أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟!

والله ما لنا بهذا من حاجة..

ووالله لا نعطيهم إلا السيف.. حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وبكل الاحترام، يتفهم الرسول ﷺ وجهة نظر سعد بن معاذ، ويعود إلى غطفان، لينبئهم بأن أهل المدينة لم يوافقوا على طلبهم.

وتشتد ضراوة الحصار يوما بعد يوم، ويزداد إجهاد المسلمين يوما بعد يوم، لقلة الطعام وتزايد القلق على أطفالهم ونسائهم في المدينة.

ويضطر الرسول ﷺ إلى إرسال بعض قوات الجيش إلى المدينة لحماية النساء والأطفال، فينكشف الخندق، ووجدها المشركون فرصة للقيام ببعض المناوشات.

وقرب نهاية الحصار، وبينما سعد بن معاذ واقف وسط أصحابه، إذا بسهم طائش من جبهة الأعداء يصيب وريدا في يده، فينزف سعد نزيفا شديدا، ويهرع إليه الرسول ﷺ في انزعاج شديد، وعلى الفور، يأمر بعض الصحابة أن يحملوه إلى مسجده، وأن ينصبوا له خيمة داخل المسجد للتداوي فيها على يد « فيدة ».

وبينما سعد بن معاذ في جراحه وآلامه، فإذا به يرفع بصره إلى السماء في رجاء وتوسل قائلا:

- اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك ﷺ، وكذبوه، وأخرجوه..وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعل ما أصابني اليوم طريقا للشهادة..ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

ولم تمر دقائق بعد الدعاء.. حتى توقف النزيف.

فلم يكن لرجل أحبه الرسول ﷺ كل هذا لحب، أن يرد الله دعائه..

وبعد يوم واحد فقط من إصابة سعد، أذن الله للمؤمنين بالنصر جزاء صبرهم وإيمانهم..

وعاد المسلمون إلى المدينة محققين انتصارا مذهلا للجزيرة العربية كلها.

إلا أنه كان لقبيلة بعينها، كابوسا مزعجا، لم يتخيل أكثر المتشائمين من أهلها أن يحدث.

إنها قبيلة بني قريظة ..

عليها الآن.. أن تدفع ثمن الخيانة.

كاملا.

* * *

ما إن انتهى المسلمون من أزمة حصار الخندق، حتى بدأ زحفهم على بني قريظة.

وهناك.. حاصروهم خمسة وعشرين ليلة.

ودارت الدائرة على بني قريظة، وعاشوا ساعات الحصار الرهيبة، كما عاشها المسلمون من قبل

بفعل خيانتهم..

إلا أن مصير خونة كهؤلاء، لم يكن أبدا كمصير المسلمين.

فقلد عرض « كعب بن أسد »على الرسول ﷺ أن يسلموا سلاحهم مقابل فك الحصار..

إلا أن الرسول ﷺ رفض بكل حزم.

ويعرض كعب بن أسد عرضا آخر، هوأن يحكم في أمرهم سعد بن معاذ.

وفي الواقع كان كعب من الغباء الشديد لأن يضع أمله الأخير على سعد بن معاذ، ابن بلده وحليفهم في الجاهلية، لعله يكون رفيقا بهم.

ويوافق الرسول ﷺ على تحكيم سعد، ويأمر بإحضاره من المسجد إلى مكان الحصار، عند بني قريظة.

وكان هذا هوأقصى ما يتمناه سعد..

لقد واتته الفرصة ليشفي الله صدره من خونة بني قريظة.

وحمل الصحابة سعد إلى الرسول ﷺ، وهم يترقبون ما سيقوله، وقد أخذوا يسألونه في شغف قائلين:

- بماذا ستحكم يا سعد.. بماذا؟

وينظر إليهم سعد بن معاذ ويقول في صرامة:

- آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

ووصل سعد إلى مكان الحصار، وهو يقف أمام وفد بنى قريظة، وأخذ ينظر إليهم نظرة احتقار، بينما ينظر إليه كعب بن أسد في توسل واستعطاف وهو يقول:

- تذكر حلفنا القديم يا سعد، نحن وأنت أبناء المدينة.

ودب الرعب في قلب كعب، وهو يرى وجه سعد وهو يكاد ينفجر غيظا واحتقارا وهو يقول:

- وهل تذكرتم أنتم حلفنا معكم ؟

ويلتفت إليه الرسول ﷺ ليقول له في قوة:

« احكم يا سعد في بني قريظة ».

قال سعد في صرامة، وهو يرى أمامه شريط الغدر والخيانة، الذي كاد المسلمون رجالا ونساء وأطفالا أن يهلكوا من آثرهما، والشرر يكاد يتطاير من عينيه:

- نعم يا رسول الله، سأسمعكم حكمي على بني قريظة..

وتابع:

- إني أرى أن يقتل مقاتلوهم..وتسبى زراريهم..وتقسم أموالهم.

كانت كلمات سعد على بني قريظة، كأسهم نافذة تخترق القلوب وتمزقها إربا ..

بينما شعر سعد بعدها، بأن نارا قد انطفأت في صدره، وأنه أخيرا قد ذاق طعم الراحة منذ زمن بعيد.

إلا أنه كان يبدو بعدها أن راحة سعد ستطول.. وأن كلمات النهاية قد بدأت أول سطورها.

فلقد بدأ الجرح ينزف من جديد..

ومع سيل الدم الذي كان ينزف من يده، شعر سعد أن مهمته قد انتهت، وأن الله قد اكتفى منه بسبع سنوات فقط مجاهدا في سبيله.

وبينما كان الرسول ﷺ يزوره في بيته، فإذا به يشعر أنه يعيش لحظات الوداع، وبكل حنان الدنيا، أخذ رسول الله ﷺ برأس سعد ووضعها في حجره، ثم رفع يده إلى السماء قائلا:

« اللهم إن سعدا قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحا».

وبصعوبة كبيرة، يفتح سعد عينيه على وجه رسول الله ﷺ، ليكون آخر ما يراه سعد في حياته، وهو يقول بصوت متهدج:

- السلام عليك يا رسول الله..أما إني لأشهد أنك رسول الله.

وبكلمات رقيقة.. قال الرسول ﷺ وهو يتملى من وجه سعد مبشرا له:

« هنيئا لك يا أبا عمرو».

وبعدها.. غمضت عينا سعد..

إلى الأبد..

ورحل الشاب الصغير، من دنيا ضيقة إلى حياة رحبة واسعة، وقد ترك خلفه رائحة المسك يتذكره بها أصحابه، ونذكره نحن بها إلى يوم الدين.

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

- كنت ممن حفروا لسعد قبره..

وكنا كلما حفرنا طبقة من تراب، شممنا ريح المسك.. حتى انتهينا إلى اللحد.

وسكنت المدينة حزنا على خير زعمائها وأبنائها..

كان هذا ما حدث في الأرض، أما ما حدث في السماء، فهو ما لم يحدث لأحد إلا لذلك الشهيد الجليل.. فلقد أخبرهم الرسول ﷺ، بأن عرش الرحمن قد اهتز لموت سعد بن معاذ..

يا له من حدث كفيل بأن يتمنى الإنسان أن يموت ألف مرة.

وطوى التراب جسد سيد الأوس، ووقف الجميع ينظرون إلى قبره في وداعه الأخير.. ووجهه المشرق لا يفارق خيالهم..

وذكرياته الجميلة لا تفارق أذهانهم..

وحديث الرسول ﷺ عنه لا يفارق ذاكرتهم..

عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ أتي بثوب من حرير فجعل الناس يتعجبون من حسنه ولينه، فقال ﷺ:

« لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل- أو خير- من هذا ».

هنيئا لك أيها الشاب الجميل ما كان لك..

وعندما تستريح من عناء الجهاد..ادع لنا أن نصل إلى واحد على ألف مما وصلت إليه عند الله، وعند رسول الله ﷺ في سبع سنوات.

فقط سبع سنوات.

فلعلنا نصل.

* * *

دروس وتحليل

١- حسن الإنصات والموضوعية في التفكير تهدي الإنسان إلى الحق، والعناد الأعمى يحرم صاحبه من رؤية الصواب ويجعله ملازما للضلال (موضوعية سعد بن معاذ في التفكير كانت سببا في هدايته للحق و(إسلامه) .

ما الذي يجعل شخصا غاضبا متحفزا مستجمعا قوى الشر لديه، أن يغير موقفة مائة وثمانين درجة بعد ربع ساعة أو نصف ساعة من حوار دار بينه وبين الشخص الغاضب منه كل هذا الغضب؟

إنها الموضوعية التى دعت « أسيد بن حضير» إلى التفكير بحيادية، ودفعته إلى التفكير في كلام مصعب بمنطقية كانت كفيلة باتخاذه قرار دخول الإسلام.

هناك من الأشخاص من يحاور الآخرين وكله إصرار على ألا يفكر ولو لثوان في وجهة نظره، وهو يفترض في حواره دائما، أن كلامه كله صحيح لا يحتمل الخطأ، وكلام غيره خطأ لا يحتمل الصواب، وهى طريقة كفيلة بأن يفقد الحوار مغزاه وهدفه، وهو تواصل الأفكار والوصول إلى الحقيقة. ولابد حتما أن تتوه الحقيقة عندما يحاول كل شخص أن يدافع عن وجهة نظره وكأنها هي الحقيقة المطلقة، بدون أن يكون لديه أدنى استعداد أن يقتنع بشيء آخر.

هذه الشخصيات لا يمكن أن تتغير، ولا يمكن أن يتجاوب معها الناس؛ لأنها ستفقد الأمل فيهم، بعد أن تأكدوا أن هذه النوعية لا ترى إلا رأيها.. ولا تقبل سواه.

٢- إذا كنت تحب صديقك فأنت تسعى إلى هدايته (أسيد بن حضير يفكر في حيلة يجعل بها صديقه سعد بن معاذ يقابل مصعب بن عمير، وينجح في حيلته).

ما معنى أن تحب صديقا لك، وأنت تعلم أنه يرتكب المعاصى ليل نهار دون أن تنصحه ؟ وما معنى أن تحب صديقا لك، وأنت تدعوه إلى مشاهدة فيلم فاضح أو معاكسة فتيات في الطريق، أوالاستهزاء بشاب أدى فرض الصلاة، أو شرع في التقرب من الله ؟

ما معنى أن تحب صديقك بهذا الشكل، وأنت تعلم أنه ينتظر حسابا مريرا يوم القيامة، وأن الله غاضب عليه لا محالة من جراء تصرفاته، وأنت لا تسعى إلى نصحه وإرشاده، مستغلا ما بينكما من ود ومحبة ؟

هل ستفرح عندما تجد صديقك يعذب في النار ؟ هل ستفرح عندما يتبرأ الرسول ﷺ من أفعاله يوم الحساب ؟

إن الحب بين الأصدقاء لابد أن يدفع إلى النجاة، ليس من أزمات الدنيا فقط، ولكن من أزمات الآخرة أيضا.. وهي أقسى وأشد.

ما أجمل أن يحب بعضنا بعضا في طاعة الله، فنظل دائما تحت رعايته، وفي أمنه وظل رحمته.

٣- الاهتمام بالشخصيات القيادية ورعايتها يصب بقوة في مصلحة الإسلام (بنو عبد الأشهل يسلمون جميعا خلف قائدهم سعد بن معاذ).

إذا كنا نحب الإسلام ونتمنى نصرته، وفي نفس الوقت نريد الثواب والرضا من الله، فلنرعى الشخصيات التى تتمتع بملكة القيادة، فهى شخصيات مؤثرة، إذا ظهرت أمام الناس وهى تطبق الإسلام، كان ذلك كافيا لعشرات من الأصدقاء أن يحاولوا الالتزام به، أو على الأقل يصبح واجهة جيدة لدين أصبح متهما بالضعف وعدم القدرة على البناء والإصلاح والتغيير، إننا في مجتمع نهتم جدا بالمعوقين واليتامى، وهذا مطلوب، ولكننا نريد أن نهتم ولو بواحد على عشرة من اهتمامنا بذوي الاحتياجات الخاصة واليتامى، بالمواهب ورعاية الشخصيات المؤثرة، وسيكون هذا دافعا قويا أيضا لرضا الله والفوز بثوابه..

٤- على القيادات في كل مكان أن تدرك خطورة المحاسبة أمام الله (سعد بن معاذ ينجح في أن يدخل قومه الإسلام نتيجة لنفوذه في المدينة بينهم).

إلى كل قائد في أي مؤسسة صغيرة أو كبيرة، مدرسة أو شركة أو مصنع أو حتى محل بقالة، لابد أن تعى أن تصرفاتك ستنسحب إلى من لديك من عمال وموظفين، فاحرص أن تكون دافعا لهم لطاعة الله ، لا لمعصيته.

٥- نحتاج إلى حلول عملية لحل المشكلات التي يعاني منها المسلمون (سعد بن معاذ يقدم حلا عمليا لحل مشكلة السكن عند المهاجرين) .

كثيرا ما يتحدث الدعاة والناس عن تعاليم الإسلام ونواهيه، وحث الناس على الطاعة، وأصبحنا مدمنى كلام ومدمنى سماع، وتظل مشاكلنا كما هى لا تتحرك قيد أنملة، نريد أن نطرح حلولا عملية لمشاكلنا، وما أكثرها، مشكلة البطالة والعنوسة وتدهور الأخلاق والتخلف العلمى والفقر والجهل، نريد أن نشعر الناس أن الإسلام ليس دين كلام، بل دين عمل وحياة، نحن لا نغفل الجانب الحماسى والجانب الروحى، ولكن لابد أن يتحول هذا إلى طاقة تغير وتؤثر في المجتمع، ينبغى أن نشعر بتغيير من هذا الكم الهائل من البرامج الدينية المستمرة طوال اليوم، ثم ننظر بعدها إلى أحوالنا لنجدها كما هي محلك سر.

على الدعاة أن يفكروا في الطرق العملية لتطبيق الإسلام، حتى يفعلوا الدين الذي جاء لتغيير حياتنا نحن المسلمين، ثم ينطلق بعدها ليغير الكون كله من حولنا.

٦- المعادن النفيسة تظهر في المواقف الصعبة (سعد بن معاذ يشجع الرسول ﷺ على لقاء المشركين في بدر) .

هناك شخصيات تكثر الكلام والنقد بصورة تجعلك تصنف أصحابها بأنهم « معارضون دائمون»، ثم تفاجأ بهم في المواقف الصعبة بأنهم ينسحبون، ويبدؤون في اختلاق الأعذار

تلوالأعذار لتبرير انسحابهم، هذه الشخصيات تضر الإسلام وتضر المجتمع، ولا تفعل أكثر من أن تؤلب الناس على الناس دون هدف.

إن الفيصل في الإسلام هو: ماذا فعلت؟ لا: ماذا قلت؟

٧- كانت الشورى مبدأ من مبادئ الدولة الإسلامية، طبقها النبى ﷺ في أخطر الأمور، وتنازل عن رأيه في مواقف عدة (الرسول ﷺ يتنازل عن رأيه في إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة لرفض سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة).

طبق الرسول ﷺ الشورى بين المسلمين في مواقف غاية في الخطورة، ونزل عن رأيه في بعض المواقف، ولم يتمسك برأيه بدعوى أنه نبى موحى إليه، ولكنه كان يدير الدولة كبشر يعلم بشرا، لينقل للأجيال قيمة التشاور وحرية الرأي، وهو نفس المبدأ الذي فقدناه بيننا في كل مؤسساتنا، بدءا من الدولة وانتهاء بالأسرة الصغيرة بين الآباء وأبنائهم.

إن حرية الرأي من كرامة الإنسان، وهى دافع قوي للإحساس بذاته وقيمته في الحياة، وهى دافع له لأن يفكر ويبدع، ويندمج في المجتمع ليتعاون معهم من أجل إنجاز عمل مشترك يحقق حلما جماعيا، والديكتاتورية تؤدي إلى الانعزالية حتى على مستوى الأسرة، وعدم الشعور بالمسئولية تجاه أي شيء، وتتولد الأنانية والأنانالية، وتنحدر قيمة الإنسان.

فلنطبق الحرية في أسرنا ودوائرنا الصغيرة، ولنعلمها لأجيال بعدنا، عسى أن تتسع الدائرة شيئا فشيئا، لنعود بظهرنا إلى ألف وأربعمائة عام.

٨- الشورى في وجود الرسول ﷺ ، دليل على مدنية الدولة الإسلامية .

يدعى البعض أن الدولة الإسلامية دولة دينية، بمعنى أن رئيسها لا يحاسب؛ لأنه لا يخطئ، وما فعله الرسول ﷺ في مواقف عدة بينه وبين الصحابة، وكان للشورى فيها الكلمة العليا، دليل قاطع على مدنية الدولة التى لا يقدس حاكمها، فلو كان هناك حاكم أولى أن يقدس، لكان النبى ﷺ صاحب الرسالة، والأكثر من ذلك أن الرسول ﷺ تنازل عن رأيه في بعض المواقف ، ليثبت لمن بعده أن أمور الحكم فيما يخرج عن النصوص القاطعة، ينبغى أن تكون بموجب الشورى، التي يتم فيها تبادل الرأي بحرية، ويحتكم فيها الجميع إلى العقل البشري، كل حسب قدرته ورؤيته.

٩- الإخلاص من أسباب استجابة الدعاء (سعد بن معاذ يدعو الله أن يقر عينه في بني قريظة، والله يستجيب لدعائه) .

رغم نزيف سعد بن معاذ المستمر من سهم طائش من معسكر قريش في غزوة الأحزاب، إلا أن إخلاصه الشديد، كان سببا لوقف النزيف بصورة تبدو غير منطقية، حتى مكنه الله من بني قريظة، ليحكم فيهم حكمه، ويرتاح قلبه ويعود بعدها النزيف مرة أخرى ليستشهد سعد.

إن هذا الموقف يعلمنا أن الدعاء بتضرع، عندما يكون المسلم في كامل احتياجه لله، سيجعل

الأسباب تتخطى حدود المنطق ليجاب الدعاء، فلله خزائن السموات والأرض وهوالذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن الدعاء بإخلاص، لهو تصريح بالأمل لكل إنسان، مهما بلغت همومه، ومهما تعرض لأزمات، ومهما وقفت في طريقه صعوبات.

١٠- الله يزن العمل بقيمته لا بكثرته، وعنصر الزمن ليس شرطا لبلوغ أعلى منازل الجنة (سبع سنوات كانت كافية لكي يهتز عرش الرحمن لاستشهاد سعد) .

باب آخر واسع من أبواب الأمل يفتحه الإسلام على مصراعيه لكل تائب، فهو لا يعترف بعنصر الزمن في بلوغ أعلى منازل الجنة، إنه يعترف فقط بقيمة ما تعمله ومدى إخلاصك فيه، فلا يحزن إذن من فاتته سنوات في معصية الله، فأمامه فرص كثيرة لأن يتفوق على من سبقوه في الطاعة، ولكن عليه أن يجتهد أكثر، ويثبت أمام الله إصراره وكفاحه في العبادة والعمل لنصرة الإسلام، في مجال إصلاح النفس ودعوة الغير وخدمة الناس.

الإسلام يريد منك الكيف قبل الكم، يريد منك أن تختار الصعب الذي لا يقترب منه أحد، لتكون أنت من السابقين الأولين، يريد منك أن تكون جريئا حيث يخاف الناس، وتكون نشيطا حينما يكسل الناس.

يريد الإسلام منك أن تكون متميزا ومتفردا..ساعتها ستسبق الكثيرين قبلك؛ لأنك اجتزت الأصعب، واخترت الأشق.. طمعا في رضا الله، والفوز بجنته.

* * *